يتوعد الله سبحانه من بخل بماله واستغنى عن ربه عز وجل، وكذّب بالجزاء يوم القيامة بأن ييسره لطريق الشر؛ لأن من قصد الشر جازاه الله بالخذلان وكل ذلك بقدر مقدر ثم لا يغني عنه ماله إذا مات حيث يتردى في الآخرة في نار جهنم، عياذاً بالله.

وقال تعالى: ﴿وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُولَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [التغابن: ١٦].

يخبر تعالى أن من سلم من الحرص الشديد الذي يحمله على ارتكاب المحارم، ومنع الحقوق؛ فقد فاز ونجح.

واعلم أن شح النفس فقر لازم لا يذهبه ملءُ الأرض ذهباً بل غنى المال يزيده، وإنما الذي يقتلعه من جذوره إيمان بالله، ورضى بما قسم الله، وثقة بما عند الله.

وأما الأحاديث فتقدمت جملة منها في الباب السابق.

٥٦٣ ـ وعن جابر رضي الله عنه أنَّ رسولَ الله ﷺ قالَ: «**اتَّقُوا الظُّلمَ، فَإنَّ الظُّلمَ ظُلُمَاتٌ يَوْمَ القِيامَةِ، واتَّقُوا الشُّحَّ، فَإنَّ الشُّحَّ أهْلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، حَمَلَهُم على أن سَفَكُوا دِمَاءَهم واسْتَحَلُّوا مَحَارِمَهُمْ**» رواه مسلم.

مضى توثيقه وشرحه برقم (٢٠٣) باب تحريم الظلم.

٦٢ ـ باب
الإيثار والمواسَاة

قال ابن قيم الجوزية في «مدارج السالكين» (٢ / ٢٩١ ـ ٣٠٤):

«الإيثار ضد الشح، فإن المؤثر على نفسه تارك لما هو محتاج إليه، وهذا المنزل هو منزل الجود والسخاء والإحسان، وسمي بمنزل الإيثار؛ لأنه أعلى مراتبه، فإن المراتب ثلاثة: **إحداها**: أن لا ينقصه البذل، ولا يصعب عليه؛ فهو منزلة السخاء.

الثانية: أن يعطي الأكثر ويبقي له شيئاً، أو يبقي مثل ما أعطى؛ فهو الجود.

الثالثة: أن يؤثر غيره بالشيء مع حاجته إليه، وهو مرتبة الإيثار.

وهو على ثلاث درجات:

الدرجة الأولى:

أن تقدمهم على نفسك في مصالحهم؛ مثل أن تطعمهم وتجوع، وتكسوهم وتعرى، وتسقيهم وتظمأ، بحيث لا يؤدي ذلك إلى ارتكاب إتلاف لا يجوز في الدين؛ مثل أن تؤثرهم بمالك وتقعد كَلًّا مضطراً، مستشرفاً للناس أو سائلاً، وكذلك إيثارهم بكل ما يضر على المؤثر دينه؛ فإنه سفه وعجز يذم المؤثر به عند الله وعند الناس.

وكذلك الإيثار بما يفسد على المؤثر وقته قبيح؛ مثل أن يؤثر بوقته ويفرق قلبه في طلب خلفه، أو يؤثر بأمر قد جمع قلبه وهمه على الله؛ فيفرق قلبه عليه بعد جمعيته، ويشتت خاطره، فهذا أيضاً إيثار غير محمود.

وكذلك الإيثار باشتغال القلب والفكر في مهماتهم ومصالحهم التي لا تتعين عليك على الفكر النافع، واشتغال القلب بالله، ونظائر ذلك لا تخفى، بل ذلك حال الخلق، والغالب عليهم.

وكل سبب يعود عليك بصلاح قلبك ووقتك وحالك مع الله؛ فلا تؤثر به أحداً، فإن آثرت به فإنما تؤثر الشيطان على الله، وأنت لا تعلم.

وتأمل أحوال أكثر الخلق في إثيارهم على الله من يضرهم إيثارهم له ولا ينفعهم، وأي جهالة وسفه فوق هذا؟

ومن هذا تكلم الفقهاء في الإيثار بالقرب، وقالوا: إنه مكروه أو حرام؛ كمن يؤثر بالصف الأول غيره ويتأخر هو، أو يؤثره بقربه من الإمام يوم الجمعة، أو يؤثر غيره بالأذان والإقامة، أو يؤثره بعلم يحرمه نفسه، ويرفعه عليه؛ فيفوز به دونه.

الدرجة الثانية:

إيثار رضى الله عز وجل على غيره: هو أن يريد ويفعل ما فيه مرضاته، ولو أغضب الخلق، وهي درجة الأنبياء؛ وأعلاها للرسل عليهم صلوات الله وسلامه، وأعلاها لأولي العزم منهم، وأعلاها لنبينا ﷺ وعليهم؛ فإنه قاوم العالم كله، وتجرد للدعوة إلى الله، واحتمل عداوة البعيد والقريب في الله تعالى، وآثر رضى الله على رضى الخلق من كل وجه، ولم يأخذه في إيثار رضاه لومة لائم، بل كان همه وعزمه وسعيه كله مقصوراً على

إيثار مرضاة الله، وتبليغ رسالاته، وإعلاء كلمته، وجهاد أعدائه، حتى ظهر دين الله على كل دين، وقامت حجته على العالمين، وتمت نعمته على المؤمنين؛ فبلَّغ الرسالة، وأدَّى الأمانة، ونصح الأمة، وجاهد في الله حق جهاده، وعبد الله حتى أتاه اليقين من ربه، فلم ينل أحدٌ من درجة هذا الإيثار ما نال، صلوات الله وسلامه عليه.

فإن المحنة تعظم فيه أولاً؛ ليتأخر من ليس من أهله؛ فإذا احتملها وتقدم انقلبت تلك المحن منحاً، وصارت تلك المؤن عوناً، وهذا معروف للخاصة والعامة، فإنه ما آثر عبد مرضاة الله عز وجل على مرضاة الخلق، وتحمل ثقل ذلك ومؤنته، وصبر على محنته إلا أنشأ الله من تلك المحنة والمؤنة نعمة ومسرة، ومعونة بقدر ما تحمل من مرضاته، فانقلبت مخاوفه أماناً، ومظان عطبه نجاة، وتعبه راحة، ومؤنته معونة، وبليته نعمة، ومحنته منحة، وسخطه رضى، فيا خيبة المتخلفين، ويا ذلة المتهيبين!

هذا وقد جرت سنة الله ـ التي لا تبديل لها ـ أن من آثر مرضاة الخلق على مرضاته أن يسخط عليه من آثر رضاه، ويخذله من جهته، ويجعل محنته على يديه، فيعود حامده ذامّاً، ومن آثر مرضاته ساخطاً؛ فلا على مقصوده منهم حصل، ولا إلى ثواب مرضاة ربه وصل، وهذا أعجز الخلق وأحمقهم.

هذا مع أن رضى الخلق لا مقدور، ولا مأمور، ولا مأثور؛ فهو مستحيل، بل لا بد من سخطهم عليك، فلأن يسخطوا عليك وتفوز برضى الله عنك أحب إليك وأنفع لك من أن يسخطوا عليك والله عنك غير راض، فإذا كان سخطهم لا بد منه ـ على التقديرين ـ؛ فآثر سخطهم الذي ينال به رضى الله، فإن هم رضوا عنك بعد هذا، وإ؛ فأهون شيء رضى من لا ينفعك رضاه، ولا يضرك سخطه في دينك، ولا في إيمانك، ولا في آخرتك، فإن ضرك في أمر يسير في الدنيا فمضرة سخط الله أعظم وأعظم، وخاصة العقل احتمال أدنى المفسدتين لدفع أعلاهما، وتفويت أدنى المصلحتين لتحصيل أعلاهما؛ فوازن بعقلك، ثم انظر أيَّ الأمرين خير فآثره، وأيهما شر فابعد عنه، فهذا برهان قطعي ضروري في إيثار رضى الله على رضى الخلق.

هذا مع أنه إذا آثر رضى الله كفاه الله مؤنة غضب الخلق، وإذا آثر رضاهم لم

يكفوه مؤنة غضب الله عليه.

قال بعض السلف: لمصانعة وجهٍ واحد أيسر عليك من مصانعة وجوه كثيرة، إنك إذا صانعت ذلك الوجه الواحد كفاك الوجوه كلها.

وقال الشافعي: رضى الناس غاية لا تدرك؛ فعليك بما فيه صلاح نفسك فالزمه.

ومعلوم أنه لا صلاح للنفس إلا بإيثار رضى ربها ومولاها على غيره.

الدرجة الثالثة:

إيثار إيثار الله: أن تنسب إيثارك إلى الله دون نفسك، وأنه هو الذي تفرد بالإيثار لا أنت، فكأنك سلمت الإيثار إليه، فإذا آثرت غيرك بشيء فإن الذي آثره هو الحق لا أنت، فهو المؤثر حقيقة؛ إذ هو المعطي حقيقة.

وقد تبين في العلم أن العبد ليس له شيء أصلاً، والعبد لا يملك حقيقة؛ إنما المالك بالحقيقة سيده» أ. هـ ملخصاً.

قال الله تعالى: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ [الحشر: ٩].

مدح الله تعالى الأنصار بأنهم يقدمون المحاويج على حاجة أنفسهم، ويبدؤون الناس قبلهم في حال احتياجهم إلى ذلك.

وقال تعالى: ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ مِسْكِينًا وَيَتِيمًا وَأَسِيرًا﴾ [الدهر: ٨]، إلى آخر الآيات.

هذه حال الأبرار يطعمون المساكين واليتامى والأسرى الطعام في حال محبتهم وشهوتهم، واعلم أن الحال الأول أعلى من هذه الحال، فإن هؤلاء تصدقوا وهم يحبون ما تصدقوا به، وقد لا يكون لهم حاجة إليه، ولا ضرورة به، والأول آثروا على أنفسهم مع خصاصتهم وحاجتهم إلى ما أنفقوه، والله أعلم.

٥٦٤ ـ وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: جَاءَ رَجُلٌ إلى النَّبيِّ ﷺ فقال: إنِّي مجهُودٌ، فأرسَلَ إلى بَعْضِ نِسَائِهِ، فَقَالت: والَّذي بَعَثَكَ بالحَقِّ ما عندي إلاَّ ماءٌ، ثم أرسَلَ إلى أُخْرَى، فقالتْ: مثلَ ذٰلِكَ، حتَّى قُلْنَ كُلُّهنَّ مِثلَ ذٰلِكَ: لا والَّذي بَعَثَكَ بِالحَقِّ ما عِنْدي إلاَّ ماءٌ. فقال النبيُّ ﷺ: «من يُضِيفُ هٰذا اللَّيْلَةَ؟»

فقـال رجُلٌ من الأنصار: أنا يا رسُولَ اللهِ. فَانْطَلَقَ بهِ إلى رحلهِ، فقالَ لامرأتهِ: أكرمي ضيفَ رسولِ اللهِ ﷺ.

وفي روايةٍ قال لامرأتِه: هل عندَكِ شَيءٌ؟ فقالتْ: لا، إلَّا قُوتَ صبياني قال: عَلِّلِيْهم بشَيءٍ وإذا أرادُوا العشـاءَ، فنوِّميهم، وإذا دَخَلَ ضَيْفُنا، فأطفئِي السِّراجَ، وأرِيهِ أنَّا نَأكُل؛ فقعَدُوا وأكَلَ الضيَّفُ وبَاتَا طَاويين، فَلمَّا أصبح، غَدَا على النَّبيِّ ﷺ، فقالَ: «**لَقَدْ عَجِبَ الله مِنْ صَنِيعِكُمَا بِضَيفِكُمَا اللَّيْلَةَ**» متفقٌ عليه.

توثيق الحديث: أخرجه البخاري (٧ / ١١٩ - فتح)، ومسلم (٢٠٥٤).

غريب الحديث: **مجهود:** أصابني الجهد وهو المشقة وسوء العيش والجوع.

رحله: مأواه في الحضر، ثم أطلق على أمتعة المسافر؛ لأنها مأواه.

إلا قوت صبياني: ما يعتادون الاقتيات به على عادتهم من الولع بالطعام.

فعلليهم: أشغليهم بشيء غير هذا الطعام.

وأريه أنا نأكل: أظهري له بتحريك الأيدي على الطعام وتحريك الفم والمضغ.

طاويين: جائعين.

غدا: جاء صباحاً.

فقه الحديث: * إكرام الضيف واجب في الإسلام.

* جواز تحويل الضيف إلى من يكون قادراً على الإنفاق عليه، وسد حاجته.

* بيان حال ما كان عليه رسول الله ﷺ من قلة المؤنة والتقلل من الدنيا مع كرم العطاء.

* عفة الأنصار وأنهم أهل الإيثار مع حاجتهم.

* الله سبحانه وتعالى رقيب على عباده، مطلع على أعمالهم، عالم بأحوالهم.

* استحباب بيان الإعجاب ممن فعل حسناً.

* بيان لسبب نزول قوله تعالى: ﴿ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ومن يوق شح نفسه فأولئك هم المفلحون﴾ [الحشر: ٩].

* إثبـات صفـة التعجب لله وهي من الصفـات الفعلية التي يثبتهـا أهل السنة

والجماعة، وقد مضى بيان مذهبهم في ذلك.

وأما تأويلها بأن المراد الرضى بصنيعهما، فهو مردود؛ لأنه مبني على الظن والتخمين إذ المعنى المؤول له ظني قطعاً، وأكثر المتأولين خلطوا بين الصفات ومقتضاها فأولوا الصفة بمقتضاها وعطلوا الصفة، نسأل الله السلامة من البعد عن منهج السلف أهل الحديث.

٥٦٥ ـ وعنه قَالَ: قالَ رسولَ الله ﷺ: «**طَعَامُ الاثْنَيْنِ كافي الثَّلاثَةِ، وطَعَامُ الثَّلاثَةِ كافي الأَرْبَعَةِ**» متفقٌ عليه.

وفي روايةٍ لمسْلمٍ عن جابرٍ رضي الله عنه، عن النبي ﷺ قال: «**طَعَامُ الوَاحِدِ يَكفِي الاثْنَيْنِ، وطَعَامُ الاثْنَيْنِ يَكْفِي الأَربَعَة، وطَعَامُ الأَربَعَةِ يَكفي الثَّمانِيَةَ**».

توثيق الحديث: أخرجه البخاري (٩ / ٥٣٥ ـ فتح)، ومسلم (٢٠٥٨).

والرواية الثانية عند مسلم (٢٠٥٩).

فقه الحديث: * الحض على المكارم والقناعة بالكفاية.

* استحباب الاجتماع على الطعام؛ لأنه كلما ازداد الجمع ازدادت البركة.

* الكفاية تنشأ عن بركة الاجتماع.

* الترغيب في إطعام الطعام وعدم احتقار المرء ما عنده فيمتنع من تقديمه، فإن القليل قد يحصل به الاكتفاء بمعنى حصول سد الرمق وقيام البنية وهو خير من العدم.

٥٦٦ ـ وعن أبي سعيدٍ الخُدْريِّ رضي الله عنه قال: بينَمَا نَحْنُ في سَفرٍ مَعَ النَّبيِّ ﷺ إذ جاءَ رجُلٌ على رَاحلةٍ لهُ، فجعلَ يصرفُ بَصَرَهُ يَميناً وشِمالاً، فقالَ رسولُ الله ﷺ: «**مَنْ كَانَ مَعَهُ فَضْلُ ظَهرٍ فَليَعُد بِهِ عَلى مَنْ لا ظَهْرَ لَهُ، ومَنْ كَانَ لَهُ فَضْلٌ مِنْ زَادٍ، فَليَعُد بِهِ عَلى مَنْ لا زَادَ لَهُ**» فَذَكَرَ مِنْ أَصْنَافِ المالِ مَا ذَكَرَ حَتَّى رَأينَا أنَّهُ لا حَقَّ لأحَدٍ مِنَّا في فَضْلٍ. رواه مسلم.

توثيق الحديث: أخرجه مسلم (١٧٢٨).

غريب الحديث: **يصرف**: يجول.

فضل ظهر: مركوب زائد عن حاجته.

فليعد به: فليتصدق به.

زاد: طعام.

فقه الحديث: * الإمام يرعى رعيته ويرشدها إلى أرشد أمرها.

* الحض على التعاون على فعل الخيرات، والتكافل في الشدائد.

* سرعة استجابة الصحابة لرغبة رسول الله ﷺ وتنفيذهم لها؛ فقد كانوا بحق قرة عين له.

٥٦٧ ـ وعن سهل بن سعدٍ رضي الله عنه أنَّ امرأةً جاءَت إلى رسول الله ﷺ ببُردةٍ منسوجةٍ، فقالت: نسجتها بيَديَّ لأكسُوكَهَا، فأخَذَهَا النَّبيُّ ﷺ مُحتاجاً إليها، فخرَجَ إلينا وإنَّهَا لإزارُهُ، فقال فُلانٌ: اكسُنِيهَا ما أحسنهَا! فقالَ: «نَعَمْ»، فجلسَ النَّبيُّ ﷺ في المَجلس، ثُمَّ رجعَ فطواهَا، ثمَّ أرسلَ بها إليهِ، فقالَ لهُ القومُ: ما أحسنتَ! لَبِسهَا النَّبيُّ ﷺ مُحتاجاً إليها، ثمَّ سألتَهُ، وعلمتَ أنَّه لا يرُدُّ سائلاً، فقالَ: إنِّي واللهِ ما سألتُهُ لألبسهَا، إنَّما سألتُهُ لتكونَ كفني. قال سهلٌ: فكانت كفنهُ. رواه البخاري.

توثيق الحديث: أخرجه البخاري (٣ / ١٤٣ ـ فتح).

غريب الحديث: ببردة: هي الشملة المخططة.

إزاره: لفها على جسمه من الأسفل؛ لأن الإزار ما يلبس في أسفل البدن لستر العورة.

فقه الحديث: * استحباب المبادرة لأخذ الهدية جبراً لخاطر مهديها.

* كرم النبي ﷺ، وسعة جوده وأنه كان لا يرد سائلاً.

* جواز إعداد الشيء قبل وقت الحاجة إليه، حيث جعلها هذا الرجل كفناً له.

* مشروعية الاعتماد على القرائن حيث استدل الصحابة على أخذ الرسول له بأنه في حاجتها فقالوا: أخذها محتاجاً لها.

* جواز استحسان المرء ما يراه على غيره من الملابس؛ إما ليعلمه قدرها، وإما

ليعرض له بطلبه من حيث يسوغ له ذلك.

* مشروعية الإنكار عند مخالفة الأدب ظاهراً، وإن لم يبلغ درجة التحريم.

٥٦٨ - وعن أبي موسى رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: **«إنَّ الأشْعَرِيِّينَ إذَا أرمَلُوا في الغَزْوِ، أو قَلَّ طَعَام عِيَالِهم بالمَدِينَةِ، جَمَعُوا ما كَانَ عِنْدَهُم في ثَوبٍ واحِدٍ، ثُمَّ اقتَسَمُوهُ بَيْنَهُم في إناءٍ واحِدٍ بالسَّويَّةِ فَهُم مِنِّي وأنَا منهُم»** متفقٌ عليه.

«أرمَلُوا»: فرغَ زادهُم، أو قارَب الفراغَ.

توثيق الحديث: أخرجه البخاري (٥ / ١٢٨ - ١٢٩ - فتح)، ومسلم (٢٥٠٠).

غريب الحديث: في الغزو: في الخروج لقتال العدو.

فهم مني: قريبون خلقاً وهدياً.

فقه الحديث: * بيان فضل الأشعريين، وهم قبيلة أبي موسى الأشعري رضي الله عنه.

* بيان فضل المواساة وفضيلة خلط الأزواد في السفر وجمعها في شيء عند قلتها ثم قسمها.

* جواز تحديث الرجل بمناقب قومه.

٦٣ - باب
التنافس في أمور الآخرة والاستكثار مما يُتبرك به

الاجتهاد في العمل الصالح لينفرد العبد فيه من الأمور المحمودة؛ لأنه يؤدي إلى استباق الخيرات، وتعظيم شعائر الله، والاستكثار من أعمال البر.

قال الله تعالى: ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

بعد أن بَيَّن الله تعالى ما أعد للأبرار وحدد منازل الأخيار ندب عباده لمثل هذه المقامات؛ ففيها فليتفاخر المتفاخرون، ويتسابق المتسابقون؛ كقوله تعالى: ﴿لمثل هذا فليعمل العاملون﴾ [الصافات: ٦١].